تفسير ابن كثير

يقول تعالى مسليا لنبيه صلى ا عليه وسلّم وآمرا بالتأسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال قوم نوح E { أنؤمن لك واتبعك الأرذلون } { وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي } وقال الكبراء من قوم صالح { للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون } وقال D : { وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من ا عليهم من بيننا أليس ا بأعلم بالشاكرين } وقال تعالى : { وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها } وقال جل وعلا : { وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا } وقال جل وعلا ههنا : { وما أرسلنا في قرية من نذير } أي نبي أو رسول { إلا قال مترفوها } وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر { إنا بما أرسلتم به كافرون } أي لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا هارون بن إسحاق حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان بن عاصم عن أبي رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الاخر فلما بعث النبي صلى ا عليه وسلّم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب [قال فأتى النبي صلى ا عليه وسلّم فقال : إلام تدعو ؟ قال : أدعوا إلى كذا وكذا قال : أشهد أنك رسول ا قال صلى ا عليه وسلّم وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم] قال : فنزلت هذه الاية { وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون } الاية قال : فأرسل إليه النبي صلى ا عليه وسلّم إن ا D قد أنزل تصديق ما قلت وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها : وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل .

وقال تبارك وتعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : { وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين } أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة ا تعالى لهم واعتنائه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الاخرة وهيهات لهم ذلك قال ا تعالى : { أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون } وقال تبارك وتعالى : { فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد ا ليعذبهم

بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون } وقال D { ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا } وقد أخبر ا D عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئا بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الاخرة ولهذا قال D ها هنا : { قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر } أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغني من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة { ولكن أكثر الناس لا يعلمون } .

ثم قال تعالى : { وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى } أي ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ولا إعتنائنا بكم قال الإمام أحمد C : حدثنا كثير حدثنا جعفر حدثنا يزيد بن الأصم عن أبي هريرة Bه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [إن ا تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ورواه مسلم وابن ماجه من حديث كثير بن هشام عن جعفر بن برقان به ولهذا قال ا تعالى : { إلا من آمن وعمل صالحا } أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح { فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا } أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف { وهم في الغرفات آمنون } أي في منازل الجنة العالية آمنون منن كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي حدثنا القاسم وعلي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إن في الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال صلى ا عليه وسلّم : لمن طيب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام] { والذين يسعون في آياتنا معاجزين } أي يسعون في الصد عن سبيل اللهو اتباع رسله والتصديق بآياته { فأولئك في العذاب محضرون } أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله تعالى : { قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له } أي بحسب ماله في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرا ويضيق على هذا ويقتر على رزقه جدا وله في ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره كما قال تعالى : { انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا } أي كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير وهذا غني موسع عليه فكذلك هم في الأخرة هذا في الغرفات في أعلى الدرجات وهذا في الغمرات في أسفل الدركات وأطيب الناس في الدنيا كما قال صلى ا عليه وسلّم : [قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه ا بما آتاه] رواه مسلم من حديث ابن عمرو Bهما .

وقوله تعالى : { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه } أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به

وأباحه لكم فهو يخلفة عليكم في الدنيا بالبدل وفي الأخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث [يقول ا تعالى أنفق أنفق عليك] وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : [اللهم أعط ممسكا تلفا ويقول الأخر : اللهم أعط منفقا خلفا] وقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [أنفق بلالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالا] وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي عن يزيد بن عبد العزيز الفلاس حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر ما في يده حذار الإنفاق] ثم تلا هذه الاية { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين } .

وقال الحافظ أبو يعلي الموصلي : حدثنا روح بن حاتم حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة Bه أنه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق] قال ا تعالى : { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين } وفي الحديث [شرار الناس يبايعون كل مضطر ألا إن بيع المضطرين حرام ألا إن بيع المضطرين حرام المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكا إلى هلاكه] هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده ضعف وقال سفيان الثوري عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الاية { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه } إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم